الفصل الثالث

التبادلية بين الحركات الجماهيرية

obeikandl.com

obeikandl.com

14

عندما يصبح الناس جاهزين للانضمام إلى حركة جماهيرية فإنهم، عادة، يصبحون جاهزين للالتحاق بأي حركة فاعلة، وليس بالضرورة إلى حركة بعقيدة معينة أو برنامج معين. في المدة التي سبقت صعود هتلر إلى الحكم كان من المستحيل أن يتوقع أحد هل سينضم الشباب المتوترون إلى الشيوعيين أو إلى النازيين. وفي أثناء غليان روسيا القيصرية كان اليهود والروس مستعدين للثورة على القيصر، وللانضمام إلى الصهيونية في الوقت نفسه: في العائلة الواحدة كان أحد الأبناء ينضم إلى الثوار والآخر إلى الصهاينة. ينقل الدكتور حاييم وايزمان(*) عن أمه العبارة الآتية: «كل ما يمكن أن يحدث سوف يكون سارًا. إذا كان صموئيل (الابن الثوري) على حق، فسوف نكون سعداء في روسيا، وإذا كان حاييم (الابن الصهيوني) على حق، فسوف نذهب للعيش في فلسطين»[1].

(*) كان حاييم وايزمان (1874 – 1952م) من رواد الحركة الصهيونية، وقد كان أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية، كما كان أول رئيس لإسرائيل وكانت رئاسته فيما بين 1949 – 1952م (المترجم).

(1) Chaim Weismann, Trial And Error (New York: Harper & Brothers, 1949), P. 13.

هـذا الاستعـداد للتحـول لا ينتهـي، بالضـرورة، عنـد اعتناق المؤمن الصـادق حركة ما. عندما تكون هناك حركات جماهيرية متنافسة نجد حالات كثيرة من نقل الولاء من حركة إلى أخرى. إن المعجزة التي حولت «شاؤول» كاره المسيحيين إلى بـولّ المسيحي الصادق تتكرر في تاريخ الحركات الجماهيرية. وفي هذا العصر تنظر كل حركة جماهيرية إلى أتباع الحركات الأخرى بوصفهم أعضاء محتملين يمكن نقل ولائهم. كان هتلر يعدّ الشيوعيين الألمان أتباعًا محتملين للنازية: «إن الديمقراطي الاشتراكي، سواء كان صغـيرًا أو نقابيًا قياديًا، لن يتحوّل إلى نازي، أمّـا الشيوعي فبإمكانه، دوما، التحول»[1]. قال الزعيم النـازي روم: إن بوسعـه تحويل أشد الشيوعيـين احمرارًا إلى نـازي متعصب خلال أربعة أسابيـع[2]. ومن ناحية أخرى كان الشيوعـي كارل إديـك يعدّ لابسـي القمصان البنيّـة النازيين مددًا احتياطيًا يمكن أن يتحول إلى الحزب الشيوعي[3].

(1) Hermann Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam,s Sons, 1940), P.134

(2) Konrad Heiden, Der Fuehrer (Boston: Houghtion Mifflin Company, 1944), P. 30.

(3) Fritz August Voigt, Unto Caesar (G. P. Putnam,s Sons, 1938), P. 283.

وحيث إن كل الحركات الجماهيرية تستمد أتباعها من الأنماط البشرية نفسها وتجذب النوعية نفسها من العقول، فإن بوسعنا أن نستنتج ما يأتي:

(أ) جميع الحركات الجماهيرية متنافسة فيما بينها ومغنم واحدة منها لا بُدّ أن يكون مغرم الأخرى.

(ب) جميع الحركات الجماهيرية تبادلية، بوسع أي حركة منها أن تحول نفسها، بسهولة، إلى حركة أخرى. يمكن للحركة الدينية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية أو حركة قومية، كما أنه يمكن للثورة الاجتماعية أن تتحول إلى حركة قومية متطرفة أو إلى حركة دينية، ويمكن للحركة القومية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية، أو إلى حركة دينية.

15

يندر أن تكون للحركة الجماهيرية طبيعة واحدة، فهي كثيرًا ما تظهر خصائص من حركات أخرى، وأحيانًا خصائص من حركتين أو ثلاث في الوقت نفسه. كانت هجرة اليهود القدماء من مصر ثورة عبيد وحركة دينية وحركة قومية. وكانت القومية اليابانية المتطرفة ذات طابع ديني. أما الثورة الفرنسية، فقد شكلت دينًا جديدًا. كانت لهذا الدين

عقيدتـه، مبادئ الثـورة الخالدة: الحرية والإخـاء والمساواة. وكانـت له طقوس عبـادة هي مزيج من الطقوس الكاثوليكية والمهرجانـات الشعبيـة. وكان لهـذا الديـن قدِّيسـوه: أبطـال الحرية وشهداؤها[1] وفي الوقـت نفسه كانت الثورة الفرنسية حركـة قومية. قررت الجمعية التشريعيـة الفرنسية في 1792م نصب محاريـب في كل مكان تحمل هذه العبارة «يحيا المواطن ويعيش ويموت من أجل وطن الآباء والأجداد»[2].

وكان لحـركات الإصلاح البروتستانتـي جانب ثوري عبَّر عـن نفسـه في حركات تمـرد الفلاحين، كمـا كان لهـا، أيضًا جانب قومي. قال لوثر: «نحن الألمان في نظر الإيطاليين مجرد خنازير، وهم يستغلوننا عن طريق الاحتيال، ويمتصون خيرات بلادنا حتى النخاع. استيقظي يا ألمانيا!» [3].

والمظاهـر الدينيـة للثورتـين البلشفية والنازيـة واضحة للعيان. تحتل المطرقة والمنجل في الأولى، والصليب المعقوف في

(1) Carl L. Becker, The Heavenly City of The Elgteenth. Century Philos Hers. Cnewhaven: Yale university Press, 1932) P. 155.

(2) A. Mathiez, Les Origins Des Cultes Rervolutionnaire P. 31. Quoted By Carlton J. H. Hayes, Essays On Nationalism (New York: Macmillan Company,1926) P.103.

(3) Frantz Funck- Brentano, Luther, (London: Jonathan Cape, ltd. 1939) P.278.

الثانية، المكانة نفسها التي يحتلها الصليب المسيحي. وطقوس المواكب الحاشدة في الحركتين تحل محل المسارات الدينية. ولكل من الحركتين عقيدة، وقدّيسون، وأضرحة مقدّسة، كما أن الحركتين قوميتان بامتياز. كانت الثورة النازية قومية منذ البداية، أمّا الثورة البلشفية فأصبحت قومية في تطور لاحق.

تمثل الصهيونية حركة قومية وثورة اجتماعية، كما أنها في نظر اليهود الأرثوذكس حركة دينية أيضًا. وللقومية الأيرلندية جذور دينية راسخة. والحركات الجماهيرية المعاصرة في آسيا هي في الوقت نفسه قوية وثورية(*).

16

كثيرًا ما يكون السبيل الوحيد لإيقاف حركة جماهيرية هو إيجاد حركة بديلة. يمكن إيقاف ثورة اجتماعية بتشجيع حركة دينية أو قومية. نجحت الكاثوليكية، في البلاد التي استطاعت أن تستقطب فيها الجماهير، فى وقف الزحف الشيوعي. وفي اليابان كانت كل حركات الرفض الاجتماعي تمر

(*) يبدو أن ملاحظات المؤلف عن الصفة المزدوجة للحركات الجماهيرية تنطبق، بحذافيرها، على الجماعات الأصولية المتطرفة، الحاضنة الطبيعية للإرهاب، فهي في حقيقة أمرها، برغم شعاراتها وادعاءاتها الإسلامية، حركات سياسية تستهدف الوصول إلى السلطة (المترجم).

عبر قناة القومية. وفي جنوب الولايات يحول التضامن العرقي بين البيض دون قيام ثورة اجتماعية من الفقراء على الأغنياء. وتصدق الملاحظة نفسها على الفرنسيين في كندا، والبوير في جنوب أفريقيا.

إلا أن استبدال حركة بحركة عملية لا تنجح في كل الأحوال، وقد تكون باهظة الثمن(*). على الذين يريدون الحفاظ على الحاضر، كما هو ألاّ يغامروا باللعب في الحركات الجماهيرية: حيث توجد حركة جماهيرية توجد مناهضة للوضع القائم. في إيطاليا وألمانيا، في مدة ما قبل الحرب العالمية الثانية تصرف رجال الأعمال بطريقة بدت لهم منطقية، فدعموا الفاشية والنازية لإيقاف المد الشيوعي، إلا أنهم بعملهم هذا سارعوا، برغم عقلانيتهم، في القضاء على أنفسهم.

هناك بدائل أكثر أمنا للحركات الجماهيرية. يمكننا القول، على وجه العموم: إن أي مجهود يحول دون تشظي الذات، ويتيح فرصًا جديدة، وبدايات جديدة، سيساعد على تقليص الحركات الجماهيرية. سوف نناقش هذه البدائل في

(*) يستحضر المرء تجربة الرئيس المصري أنور السادات، حينما حاول في سبعينيات القرن الماضي ضرب التنظيمات الناصرية بتشجيع التنظيمات الأصولية، فكانت النتيجة وبالاً عليه (المترجم).

موضـع لاحق، أمّا هنـا فسنناقش بديلًا غريبًـا بعض الشيء، للحركات الجماهيرية هو الهجرة إلى الخارج».

17

تحقـق الهجـرة للمحيطـين الأمـل الـذي يتوخونـه عند الانضمـام إلى حركـة جماهيرية: التغيـير والبداية الجديدة. والأشخاص الذيـن يسارعـون إلى الانضمـام إلى الحركات الجماهيريـة سـوف يسارعـون إلى الهجـرة لـو أتيحـت لهم الفرصـة. من هنـا يمكننا القـول: إن الهجرة يمكـن أن تكون بديـلًا للحركـة الجماهيريـة. لـو رحبـت الولايـات المتحـدة والأمبراطوريـة البريطانية في أعقاب الحـرب العالمية الأولى بأعـداد كثيفة من أوروبا لما قامت الحركات الفاشية والنازية. وفي الولايات المتحدة ساعد السماح بالهجرة إلى أنحاء القارة الضخمة على الاستقرار الاجتماعي.

ومع ذلك، نظـرًا للشبه بين أتباع الحـركات الجماهيرية والراغبـين في الهجرة، فقد تكـون الهجرة الجماعيـة ميدانًا خصبًـا للحركات الجماعية. يصعب أحيانًا أن نحدد متى تبدأ الهجـرة الجماعية، ومتى تبـدأ الحركة الجماهيريـة – أو أن نحـدد من الذي بدأ قبل الآخر. تطورت هجرة اليهود القدماء

من مصر إلى حركة دينية وقومية. أما هجرة القبائل البربرية (البدائيــة) في الأيــام الأخيرة مــن الأمبراطوريــة الرومانية فقــد كانت أكثر من تنقُّــل بشري. كانت هــذه القبائل صغيرة العــدد، ولكنها بمجرد غزو دولة ما كانت تستقطب إلى جانبها المظلومين والمتذمرين. في جميع مناحي الحياة «كان الأمر ثورة اجتماعية تغلفت بقناع الغزو الخارجي»[1].

كل حركــة جماهيريــة هي، على نحــو أو آخــر، «هجرة»، حركة نحو «أرض الميعاد»[*]. وعندما تسمح الظروف للحركة، فإنها تنطلق بالفعل إلى تلك الأرض. حدث هذا مع الجماعات البروتستانتية الأوربية التي عَدَّت الولايات المتحدة أرض الميعاد الجديدة، وهاجــرت إليها، كما حدث مع تدفق الصهاينة على فلسطــين. تقــوي الهجــرة، عندما تكــون بأعداد كبــيرة، روح الحركة ووحدتهــا، وتلجأ الحركات الجماهيريــة النشطة إلى الهجــرة، عندما تكون بصدد غــزو خارجي، أو حرب صليبية، أو الاستيطان في أراضٍ جديدة.

---

(1) H.G Wells, the outlin Of Histmry (New York: Macmillan Company, 1922) pp. 482- 484

(*) تصــدق ملاحظة المؤلف على عدد من الجماعات الأصولية المتطرفة التي تدعو أتباعهــا إلى «الهجرة» من العالم ومفاســده، وقد يستخدم بعضها كلمة الهجرة، كما في جماعة «التكفير والهجرة» المصرية (المترجم).